

العلاقة المرتبكة بين الأدب والأسطورة

The Literature and the Legend Perturbed Relationship

La relation confuse entre littérature et légende

بولكعيبات نعيمة¹*

تاريخ النشر: 2022/12/02

تاريخ القبول: 2021/09/17

تاريخ الإرسال: 2021/06/04

ملخص:

لم يستطع الأدب التخلي عن توظيف الأسطورة، ولا تزال الأسطورة تحيا طيلة هذه الأزمنة بفضل توظيف الأدب لها، فالعلاقة التي تربط الأدب بالأسطورة هي علاقة جدلية يشوبها مدّ وجزر، فالأدب ترعرع في أحضان الأسطورة، وكانت ملهمة الأدباء والشعراء بل أصبحت من أهم رموز الحداثة الأدبية. غير أن إغراق الأدب في جانبه الأسطوري أدخله إلى عوالم الغموض والإبهام، ووصل إلى حد إفساد المعنى. لهذا فالعلاقة التي تربط الأدب بالأسطورة هي في حقيقتها علاقة يشوبها التوتر والارتباك، فهي قد تكون مادة الأدب الخام، وقد تكون أيضا نصا أدبيا بامتياز، وبين هذا وذاك يبقى النقد يبحث في هذه العلاقة الجدلية والمرتبكة.

الكلمات المفتاحية: الأسطورة؛ الأدب؛ جدلية؛ مرتبكة؛ المعنى؛ الحداثة.

Abstract :

The employment of the legend has not given up by literature and the legend still lives through these decades due to the literature usage of it, for the relation which ties the literature with the legend is a debatable one, where literature embraced by the legend and not only was the writers and poets' inspiration tool; yet it became one of the literary modernity most important symbols. But, literature diving in its legendary side logged it into the ambiguity and obscurity worlds to reach its corrupting meaning. In reality the relationship that links literature with legend, was tainted with anxiety and perturbation, either it may be the literature raw material or may also excellently be a literary text; therefore the criticism remains searching into this debatable and perturbed relation.

Keywords: The Legend; The Literature; The Debatable; Perturbed ;The Modernity-The Meaning

Résumé :

La littérature n'a pas pu abandonner l'emploi de la légende, et c'est grâce à cela que la légende continue de vivre à travers ces temps. La relation qui relie la littérature à la légende est une relation dialectique teintée de flux et de reflux, c'est ainsi que la littérature grandissait au sein de la légende, et elle a été l'inspiratrice des écrivains et des poètes, et elle est devenue l'un des symboles les plus importants de la modernité littéraire. C'est pourquoi le rapport qui lie la littérature

*المؤلف المراسل

¹ Boulkaibet Naima Department of Literature and Arabic Language, Faculty of Letters and Languages .University of the Mentouri Brothers. E-mail: nboulkaibet@ymail.com

à la légende est, en réalité, un rapport teinté de tension et de confusion, car elle peut être la matière première de la littérature, et elle peut aussi être un texte littéraire par excellence, et entre ceci et cela la critique doit toujours faire des recherches sur cette relation controversée et confuse.

Mots clés : légende ; littérature; dialectique ; confus ; modernité ; sens.

مقدمة

العلاقة التي تربط الأدب بالأسطورة قديمة قدم التفكير البشري، فلقد ترعرع الأدب في أحضان الأسطورة، وكانت الأكثر التصاقاً به حتى ولدت بعض « المخاوف على مستقبل الأدب كلما ظهرت موجة من مناوأة الأسطورة» (رومية، 1996، صفحة 36)، فالصلة التي تربطهما ببعضهما غير مبررة وغير مفسرة رغم الاختلاف الظاهري بين الأدب والأسطورة، إلا أن وشائج خفية تجعل علاقتهما ببعضهما قوية وغير مدركة. فقلدت الأسطورة ملهمة الأدباء والشعراء على مر العصور والأزمان، وصل الاهتمام بالأسطورة إلى حدّ ظهور منهج نقدي يهتم بالأساطير وعلاقتها بالأدب وبالحياتة الاجتماعية عرف بالنقد الأسطوري، هذا الأخير الذي « يهتم بالأدب في علاقته مع أي ميثولوجيا في سياقها الثقافي» (لعور، 2009، صفحة 20). فتخصيص منهج نقدي موجه لدراسة النص الأدبي في علاقته مع الأسطورة يجعلنا نطرح العديد من الأسئلة : لماذا خصصت نظرية الأدب منهجاً خاصاً لدراسة ملامح الأسطورة في النص الأدبي؟ وما أهمية الأسطورة في الدراسات الأدبية؟ وما هي العلائق التي تجمع النص الأدبي بالنص الأسطوري؟ وماذا أضافت الأسطورة للأدب وماذا أضاف الأدب للأساطير؟

ومن أجل الإجابة على هذه الأسئلة سأحاول الولوج إلى عوالم الأسطورة والتعريف بها وبعرض خصائصها ومكوناتها من أجل توضيح النقاط المشتركة التي تربطها بالنص الأدبي.

1- حدود الأسطورة وخصائصها

إذا أردنا الانطلاق من المفهوم اللغوي للأسطورة فإنّ جلّ المعاجم العربية تجمع على أن الأسطورة تحمل معنى الحديث الذي لا مصداقية فيه ولا حقيقة يتضمّنه، فقد جاء في اللسان: «أُخْدُوثةٌ وأَحَادِيثٌ... والأَسَاطِيرُ الأَبَاطِيلُ والأَسَاطِيرُ أَحَادِيثٌ لا نظام لها، واحدها إِسْطَارٌ وإِسْطَارَةٌ، بالكسر، وأُسْطِيرٌ وأُسْطِيرَةٌ وأُسْطُورٌ، وأُسْطُورَةٌ بالضم. وقال قوم أسَاطِيرٌ جمعُ أسْطَارٍ وأَسْطَارٌ جمعٌ، و يقال سَطَّرَ فلانٌ على فلانٍ إذا زخرف له الأَقَاوِيلَ ونَمَقَها» (منظور، 1990، صفحة 364)، وجاء في الصحاح: «الأساطير : الأباطيل ، الواحد أسطورة ، بالضم ، وإسطارة بالكسر» (الجوهري، 1990، صفحة 684).

ووردت لفظة "الأسطورة" في القرآن الكريم تسع مرات، واتفق جمهور المفسرين على أن "أساطير الأولين" ما سَطَّرَهُ الأولون. وذكر ابن عاشور في تفسيره آية 25 من سورة الأنعام في قوله تعالى: ﴿حتى إذا جاءوك يجادلونك يقول الذين كفروا إن هذا إلا أساطير الأولين﴾، أن الأساطير "جمع أسطورة بضم الهمزة وهي القصة، فالأسطورة عند العرب في الجاهلية اتخذت معنى القصة الباطلة والمكذوبة والتي مر عليها ردحا من الزمن، ولهذا رموا القرآن الكريم واعتبروه "أساطير الأولين". وقد قال **الفخر الرازي** في تفسيره لهذه الآيات: «اعلم أنه كان مقصود القوم من ذكر قولهم (إن هذا إلا أساطير الأولين) القدح في كون القرآن معجزاً فكأنهم قالوا: إن هذا الكلام من سائر الحكايات المكتوبة، والقصاص المذكورة للأوليين وإن كان هذا من جنس تلك الكتب المشتملة على حكايات الأولين وأقاصيص الأقدمين لم يكن معجزاً غارقاً للعادة» (لعور، 2009، صفحة 46).

وإذا عرجنا على المفهوم الاصطلاحي الذي يحدد حدودها محاولين الإجابة عن: **ما هي الأسطورة؟** فلا بد أن نرجع إلى ما قاله "سنت أوغسطين" بالذي قدّم لنا إجابةً زادت من أسطورية الأسطورة، فقد قال عنها: «إنني أعرف جيداً ما هي، بشرط ألا يسألني أحد عنها، ولكن إذا ما سئلت، وأردت الجواب، فسوف يعتريني التلكؤ» (رومية، 1996، صفحة 35)، فإذا سألت عن الأسطورة تجد الجميع يدرك معناها ويفهما، وإذا ما طلبت من أحدهم أن يوجز لك تعريفاً لها يقف عاجزاً وكأنما تعدى تعريفها مقدرة اللغوية، وهناك من يرجع صعوبة تعريف الأسطورة لكونها «تمثل المرحلة الأولى من طريق البشرية إلى اكتساب المعرفة لاحتوائها على بذرة التعليل» (رومية، 1996، صفحة 36)، فهي مغامرة العقل الأولى في التفكير البشري كما وصفها **فراس السواح** في كتابه "مغامرة العقل الأولى"، الذي حاول فيه تقديم وجهة نظره في الأسطورة وبداية نشأتها وربطها ببداية التفكير البشري في وجوده ونظرته إلى الكون ومعاولة الإجابة عن أسئلته، فالأسطورة كانت بمثابة الإجابة الأولى لكل ما يعجز عقل الإنسان الأول عن معرفته. ولكن هناك من رفض فكرة ربط الأسطورة ببداية التفكير البشري والعلم البدائي ومن بينهم **أليكسي لوسيف** الذي يقول في تعريف هذه الأخيرة بأنها: «الأسطورة ليست بنية علمية، ولا هي على وجه التحديد بنية علمية بدائية، إنما هي علاقة حية ذاتية - موضوعية متبادلة، تتضمن في ذاتها حقيقة خارج علمية خاصة بها، حقيقة أسطورية خالصة، كما وتملك مصداقيتها الخاصة وبنيتها الخاصة، وشرعيتها المبدئية التي تخصها وحدها» (فلسفة الأسطورة، 2000، صفحة 70)، فهي ليست وجوداً مثالياً بل واقع معاش، كما أنها خارج البنية العلمية وما ينبغي لها أن تكون ولا يمكن اعتبارها بداية للعلم البدائي الذي درس الميثولوجيا، فالعلم البدائي هو في الأول والآخر علم وليس أسطورة ويختلف كل الاختلاف عن ماهية الأسطورة وبنيتها التي تقوم على العفوية وعدم الخضوع للتحليل المنطقي والاستنتاج العلمي الدقيق والمعلل بالحجج. ورغم الاختلاف الواقع بين جموع الباحثين في ماهية الأسطورة، تبقى فكرة ربط الأسطورة بالحياة البدائية هو الراجح والمنطقي لأنها تعبر عن العقلية البدائية التي تبحث عن علل

للحياة الخارجية تناسب معتقدها ومستواها الإدراكي التي لا تعرف المنطقية ولا الزمانية ولا المكانية. فالعقل الذي أنتج الأسطورة لا يمكنه التحليل ولا تقديم الحجج والبراهين المنطقية فهو عقل «يحدس ولا يحلل، ولا يرى في الجزء إلا صورة عن الكل، وينظر إلى البرهان كشأن متضمن في عملية البيان» (لوسيف، 2000، صفحة 70).

ومما تقدم، ندرك أن من الصعوبة ما كان أن نقدم تعريفاً موحداً وثابتاً للأسطورة ولعل السبب يرجع إلى وضع هذه النصوص ضمن هالة من القدسية كسببتها عبر التراكمات التاريخية والنفسية جعلت من الأسطورية تتمتع بسلطة وتقديس لاواعية من البشر، فكانت الأسطورة تعادل في أدهان البشرية البدائية النصوص المقدسة، وإذا ما أردنا أن نوجز مفهومها لها فيمكن أن نتبنى مفهوم فراس السواح الذي اعتبرها «حكاية مقدسة، ذات مضمون عميق يشف عن معاني ذات صلة بالكون والوجود وحياة الإنسان» (لوسيف، 2000، صفحة 14). ولكن ما هي خصائص هذه النصوص التي سيطرت على العقل البشري؟ وماذا وجد المبدع فيها لتكون مرجعه الأول في الكتابة؟ وما الغاية من العودة إليها والتمسك برموزها؟

2 - خصائص الأسطورة:

إن الولوج إلى عالم الأساطير ما هو في حقيقة الأمر إلى محاولة للغوص في الفكر البشري الذي أنتجها، ومحالة فهمها هي في الحقيقة محاولة لعودة الإنسان إلى بدائيته ليفهم ذاته وقدرته وسبب إنتاجه لهذه النصوص والحكايات الخرافية وإلباسها جبة القدسية، ثم الاعتقاد بها وجعلها سبباً في تفسير العديد من الظواهر. ولعل سبب ذلك يرجع إلى الشخصيات البطولية في هذه الحكايات التي وصفها "ليفني شتراوس" بأنها شخصيات ميتافيزيقية، فالأسطورة عنده هي «حكاية تقليدية تلعب الكائنات الماورائية أدوارها الرئيسية» (الأسطورة والمعنى، 2001، صفحة 08). فشخصياتها الرئيسية تمثلها الآلهة وأنصاف الآلهة وهو ما يعطيها الطابع المقدس، بالإضافة إلى ذلك فقد حدد فراس السواح في كتابه الأسطورة والمعنى مجموعة خصائص تميز الأسطورة عن بقية الحكايات الخرافية نلخصها في النقاط التالية :

- من حيث الشكل، الأسطورة هي قصة، وتحكمها مبادئ السرد القصصي من حبكة وعقدة وشخصيات، وفي أغلب الأحيان تكون في قالب شعري من أجل تسهيل عملية ترتيبها في المناسبات الطقسية وتداولها شفاهة .
- يحافظ النص الأسطوري على ثباته عبر فترة طويلة من الزمن، وتتناقله الأجيال طالما حافظ على طاقته الإيحائية بالنسبة إلى الجماعة، فهي لا زمانية أي أنها لا تحدد بالزمن ولا يعني هذا أنها ثابتة ومتحجرة؛ لأن الفكر الأسطوري يتابع على الدوام خلق أساطير جديدة .
- لا يعرف للأسطورة مؤلف معين، لأنها ليست نتاج خيال فردي، بل ظاهرة جمعية يخلقها الخيال المشترك للجماعة وعواطفها وتأملاتها .

- تتميز الموضوعات التي تدور حولها الأسطورة بالجدية والشمولية. وذلك مثل التكوين والأصول، والموت والعالم الآخر، ومعنى الحياة وسر الوجود. إن هم الأسطورة والفلسفة واحد، ولكنهما تختلفان في طريقة تناول والتعبير. فبينما تلجأ الفلسفة إلى المحاكمة العقلية وتستخدم المفاهيم الذهنية كأدوات لها، فإن الأسطورة تلجأ إلى الخيال والعاطفة والتميز، وتستخدم الصور الحية المتحركة.

- تجري أحداث الأسطورة في زمن مقدس هو غير الزمن الحالي. ومع ذلك فإن مضامينها أكثر صدقا وحقيقة، بالنسبة للمؤمن، من مضامين الروايات التاريخية،... إن عدم تداخل الزمن الأسطوري بالزمن الحالي يجعل من الزمن الأسطوري حدثا ماثلا أبدا. فالأسطورة لا تقص عن ما جرى في الماضي وانتهى، بل عن أمر مائل أبدا لا يتحول إلى ماض.

- ترتبط الأسطورة بنظام ديني معين وتعمل على توضيح معتقداته وتدخل في صلب طقوسه. وهي تفقد كل مقوماتها كأسطورة إذا انهار هذا النظام الديني، وتتحول إلى حكاية دنيوية تنتمي إلى نوع آخر من الأنواع الشبيهة بالأسطورة. فالقداسة الدينية التي تلف الأسطورة هي التي تفرقها عن باقي الأجناس الحكائية الأخرى والشبيهة بها، ولعل الخرافة والحكاية الشعبية هي أكثر هذه الأجناس شبيها بها، «رغم البعد الشاسع بين هذه النتاجات الفكرية الثلاثة. فالخرافة حكاية بطولية ملأى بالمبالغات والخرائق. إلا أن أبطالها الرئيسيين هم من البشر أو الجن ولا دور للآلهة فيها، ففي حديث نبوي عن عائشة قالت (حدث رسول الله صلى الله عليه وسلم نساءه ذات ليلة حديثا، فقالت امرأة، يا رسول الله كأن الحديث حديث خرافة، فقال: أتدرون ما خرافة؟ إن خرافة كان رجلا من عذرة أسرته الجن في الجاهلية فمكث فيهن دهرا طويلا ثم رده إلى الأنس، فكان يحدث الناس بما رأى من الأعاجيب فقال الناس: حديث خرافة. وبصرف النظر عن صحة هذا الحديث المنسوب إلى الرسول فإن النص يظهر لنا معنى الخرافة عند العرب» (مغامرة العقل الأولى، 1996، صفحة 20)، فالخرافة هي نوع من السرد الحكائي الذي يتشكل من أبطال خارقى القوة والمواهب ويمتلكون قدرة لا يمتلكها الإنسان العادي، أما الحكاية الشعبية فهي كالخرافة لا قداسة فيها ولا تلعب الآلهة دور البطولة فيها وإنما هي قصص شعبية التي تصف الواقع اليومي ومشاكله وتحاول التعبير عنها بما يناسب كل مجتمع.

ومما أسلفنا، نجد أن الأسطورة تختلف عن الحكاية الخرافية والحكاية الشعبية، وجوهر الاختلاف يكمن في مبدأ القدسية ودور الآلهة في الأسطورة بالإضافة إلى الاهتمام بالقضايا الكبرى، وبذلك عرفنا ما يميزها عن القصص المتواترة الموجودة في الثقافة البشرية. ولكن ماذا يربط الأسطورة بالأدب؟ ولماذا تعرف الأسطورة بأنها «نص أدبي، وضع في أبهى حلة فنية ممكنة، وأقوى صيغة مؤثرة في النفوس، وهذا مما زاد في سيطرتها وتأثيرها. وكان على الأدب والشعر، أن ينتظرا فترة

طويلة، قبل أن ينفصلا عن الأسطورة» (مغامرة العقل الأولى، 1996، صفحة 20). فماهي نسبة صحة هذا الرأي وماذا أضافت الأسطورة للأدب؟

3- بين الأسطورة والأدب:

اهتم رواد الأدب والنظرية الأدبية بالأسطورة حتى كاد الفارق بينهما يصبح وهماً لا وجود له في الواقع، فالأدب هو إنتاج بشري عقلي يدخل في البنية اللاشعورية للمبدع، وهذا العقل الذي أنتج هذه النصوص يتأثر بعوامل تاريخية وثقافية وتسهم في تكوينه، وقد تعرض لها "فرويد" بمفهوم "البقايا القديمة" والتي قصد منها البنية الذهنية القديمة التي تؤثر في بنية العقل وطريقة تفكيره، «فكما يمثل الجسم البشري متحفاً كاملاً للأعضاء، كل عضو فيه ذو تاريخ تطوري طويل يجره خلفه، كذلك علينا أن نتوقع أن نرى العقل مكوناً بطريقة مماثلة. إذ لا يمكن أن يكون ناتجاً بلا تاريخ إلا إذا كان الجسم الذي يحتويه كذلك. هنا، لا أعني بـ"التاريخ" أن العقل يكوّن نفسه بالرجوع الواعي إلى الماضي من خلال اللغة والموروثات الثقافية الأخرى، بل إنني أشير إلى التطور البيولوجي واللاشعوري، إلى التطور ما قبل التاريخي الذي مر به الإنسان القديم والذي كانت نفسه ماتزال قريبة من نفس الحيوان. هذه النفس الموغلة في القدم هي التي تشكل أساس عقلمنا» (يونغ، 2012، صفحة 81)، ومن هذا المنطلق ربط التحليل النفسي الأدب بالأسطورة واعتبرها بداية التفكير (الواعي)، وعلاقته باللاوعي الذي يساعد الإنسان في التحرر من مكبوتاته. فالوعي «حافظ على بعض الخصائص البدائية التي شكلت جزءاً من العقل الأصلي. ولهذا الخصائص بالذات ترجع رموز الأحلام وتشير باستمرار، كما لو أن اللاوعي يسعى لاستعادة الأشياء القديمة كلها تلك التي تحرر منها العقل في أثناء تطوره-أي الأوهام، الأخيلية، أشكال التفكير القديمة، الغرائز الأساسية» (يونغ، 2012، صفحة 121).

وتظهر هذه الصور اللاواعية في استخدام الأساطير والحكايات الخرافية في النصوص الأدبية، وهذا الرأي يذهب إلى أن الأساطير في الأدب تُنتج بطريقة غير واعية من صاحبها وهي تعبر عن مشاعر مكبوتة في اللاشعور، وهذه الدوافع، كما يراها فرويد، لها خاصية الجمعي فهي تعبير «عن دوافع لا عقلانية معادية للمجتمع، ليس غير، وليس التعبير عن حكمة ماضية ثم التعبير عنها في لغة خاصة هي لغة الرموز» (فروم، 1990، صفحة 146). وهذا ما يميز الأساطير عن الأحلام في تحليل فرويد، فكما أن الأحلام هي تعبير عن مكبوتات فردية عفوية، فالأساطير هي تعبير عن دوافع وشعور جمعي.

ويقف النقد الأدبي بين رأيين، الأول يجعل من الأسطورة نصاً أدبياً، والآخر يضعها مادته الخام التي ينطلق منها (رومية، 1996، صفحة 36)، فما هي الحدود الفاصلة بين الأدب والأسطورة؟

ربما نستطيع الإجابة عن هذه الإشكالية انطلاقاً من رؤية "رولان بارث" علاقة الأسطورة بالأدب والتي قدمها في كتابه "أسطوريات"، ويعرفها بقوله: «الأسطورة عبارة عن منظومة اتصال. إنها رسالة. من هنا نرى أن الأسطورة ليست موضوعاً ولا مفهوماً ولا فكرة. إنها صيغة من صيغ الدلالة. إنها شكل. وفي وقت لاحق لا بدّ من أن نضع لهذا الشكل حدوداً تاريخية، وشروط استخدام، لإعادة استثمار المجتمع من خلالها: وهذا لا يمنع أولاً من وصف المجتمع بوصفه شكلاً...» (بارث، 2012، صفحة 225)، فهي شكل ومعنى ولا تعرف بموضوع الرسالة بل عن طريقة تلفظها ولا وجود لشكل نهائي يمكن أن تتجسد فيه ويشترط وجوده لتحققها؛ «إذن كل شيء يمكن أن يصبح أسطورة؟» (بارث، 2012، صفحة 226).

الأسطورة قائمة على الرمز والإيحاء وهذا ما جعلها من النصوص المفتوحة والمتعددة، تخضع للملكية الجمعية والانتقال الشفوي، فهي رسالة، هي مجرد كلام، وهذا الكلام يتحكم فيه التاريخ البشري الذي يتحكم أيضاً في انشار أو موت لغة الأساطير. وهي بالمفهوم اللساني نظام سيميولوجي بمفهوم دي سوسير يتشكل من دال ومدلول، وعلامة، لكنها تجاوزت النظام الدلالي المتعارف عليه لتصنع لذاتها «منظومة خاصة لأنها تتكون انطلاقاً من سلسلة سيميولوجية موجودة قبلها: إنها منظومة سيميولوجية ثانية. فما هي علامة (أي كل ترابطي بين مفهوم وصورة) في المنظومة الأولى، يصبح مجرد دال في المنظومة الثانية» (بارث، 2012، صفحة 226). ووحدة الأسطورة تتجسد في قانونها اللغوي الذي يجسد هذه الصور إلى علامات «علامات شاملة، أو حداً نهائياً لسلسلة سيميولوجية أولى. وهذا الحد النهائي هو الذي سيصبح حداً أولاً أو حداً جزئياً من المنظومة الموسعة التي كونها...» (بارث، 2012، صفحة 232). وتنقسم إلى نوعين من العلامات: الأولى «مفكوكة بالنسبة للأخرى وهي المنظومة اللسانية» (بارث، 2012، صفحة 232)، وهذه المنظومة اللسانية هي التي تتجسد فيها الأسطورة وتشكلها لتصنع ذاتها ومنظومتها اللغوية الخاصة بها، والعلامة الثانية التي طرحها بارث هي الأسطورة نفسها وأطلق عليها «ما بعد اللغة (لغة على لغة) METALANGAGE لأنها لسان آخر نتحدث به عن اللسان الأول» (بارث، 2012، صفحة 232)، فالعلامة الأولى هي علامة لغوية وهي التي تشكّل البنية الخاصة للأسطورة، وأما النظام العلاماتي الثاني فهي الأسطورة نفسها وهي اللغة الواصفة التي تجاوزت الأسطورة لتتحدث بها عن اللغة الأولى.

ويتميز الدال بخصوصية رئيسية فهو «معنى وشكل، في الآن ذاته، وهو مليء من جانب وفارغ من جانب آخر. والدال، بما هو معنى، يفترض قراءة ما» (بارث، 2012، صفحة 232)، فهي متعددة الدلالة، ترمز وتوضح، وحركة الانتقال بين الدال والمعنى مستمرة فحينما «يتحول المعنى إلى شكل فإنه يبعد إمكانية حدوثه، إنه يُفرغ نفسه، ويصبح فقيراً، فيتبخّر التاريخ ولا يبقى منه سوى الحرف، هنا، يوجد تحولٌ مُتناقض في عمليات القراءة، واختزال غير عادي للمعنى إلى شكل وللعلامة اللسانية إلى دال أسطوري» (بارث، 2012، صفحة 235). ويلاحظ بارث «أن التصور الأسطوري يجد أمامه

عددا غير محدود من الدالات(الدوال)، على سبيل المثال، يمكن أن يكون كتابا بأكمله دالا لمدلول واحد» (بارث، 2012، صفحة 234).

لقد أوضح بارث العلاقة بين الأسطورة والأدب عندما جعله وسيلة للقضاء عليها أو أن يكون أسطورة لـ الأسطورة، ويكون ذلك بأن تكون هي مادة أولية للأدب تخضع للغة وللخيال ونصنع منها أسطورة ثانية تتميز بالجمالية والإيحائية، ويمثل بالأسطورة المصطنعة أو أسطورة الدرجة الثانية بروايات فلوير (بوفار وبيكوشيه) حيث عدّ «الحديث الذي يجري بين بطلي هذه الرواية حديثا أسطوريا تنشأ عنه دلالة ثانية هي بلاغتهما التي يتدخل الكاتب ليجعل منها شكلا لنظام جديد. أما الدلالة النهائية، فهي الرواية ذاتها» (بارث، 2012، صفحة 235).

وبذلك فإذا أردنا معرفة العنصر المشترك بين الأسطورة كموروث تاريخي بشري، وبين الأسطورة في الأدب فهو الرمز الذي يشكل كل منهما، وأما معرفة التغيير الذي حدث لها يجعلها مادة أدبية فعلينا الوقوف عند الأثر الاجتماعي الذي حققته بهذا الانزياح من كونها جزءا من التاريخ البشري وولوجها إلى تاريخ الأدب، ولعل بارث في اعتباره الرواية شكل من أشكال انزياح الأسطورة أو الأسطورة الدرجة الثانية يتماشى مع رأي "نور ثروب فراي" في اعتقاده بأن الأدب يصدر عن الميثة، وأن عملية الانزياح والتعديل والتحوير الذي يحدثها "الأدباء الجدد" تنتج عن الحالة الأولى للأسطورة وذلك لطبيعية التغيير الثقافي والاجتماعي الذي تحققه، وهذا الانزياح يمكن أن يكون نفسه سرقة الأسطورة وتحويلها عن طبيعتها الأولى إلى أسطورة اصطناعية، عند بارث.

فبالأسطورة كانت نتيجة طبيعية للتعبير عن حاجات الفكر البدائي واللجوء ووضع تفسيرات لظواهر لم يستطع الفكر استيعابها أو إيجاد تحليل لها، وهي حاجة الإنسان منذ القديم في المعرفة.

وما يؤكد أسطورة الأدب للأسطورة نفسها، وصول الأساطير الإغريقية في شكل نصوص أدبية فحين نقرأ "إسخيل Eschyl أو وفرجيل Virgile"، نكون أمام نصوص أدبية تخيلية، فالأسطورة ليست أدبا وإنما يمكنها أن تتجسد في قالب أدبي، وبذلك نكون أمام عملية إنتاج أسطورة جديدة أدبية، أي الانتقال من الأسطورة البدائية القدسية إلى الأسطورة الأدبية، إلى النص الأسطوري وقد ذكر "دونيس دو روجمونت، وك. ليفي شتراوس" أن «الأسطورة المنتقلة إلى الأدب، على أنها آخر همسة في البنية المنتهية» (باجو، 1997، صفحة 145). كما أكد "بيير برونيل" على دور الأدب في الحفاظ على الأسطورة، وما جعلها تستمر وتحافظ على ميزتها هو احتواء الأدب لها (باجو، 1997، صفحة 145).

لقد استطاع الأدب أن يحافظ على تاريخ الأسطورة وتخليدها، فهي تنتقل من التأليف الجمعي إلى التأليف الفردي ومن الذاكرة الجمعية إلى الممارسة الفردية، وبهذا خلع عنها الطابع القدسي وحفظ لها خصوصيتها الرمزية والإيحائية التي تنتقل من الواقع إلى اللاواقع، ومن العقلي إلى الماورائي، فالعلاقة بين الأساطير والأدب مرتبكة وغير مفسرة، وكأن الأدب

في حاجة لأسطورة بعض الأعمال والشخصيات والسّير، مثل قصص دون جوان، وحكايا أبو زيد الهلالي، كما سجل التاريخ أسماء بعض الشخصيات التي تحولت إلى أسماء أسطورية مثل قيصر، ونابليون، وأيضا الظاهر بيبرس، وسيف بن ذي يزن.. إلخ، أين تحول التاريخ إلى أسطورة. وكل ما يقدسه الفكر الجمعي والثقافة الاجتماعية ويتأثر بها يجعله من الأساطير، لكن هناك فرق بين الأسطورة في بنائها القدسية البدائية والأسطورة الأدبية، ويكمن هذا الاختلاف في زمن ومكان وشخصيات هذه الأساطير.

ومما تقدم ذكره، تتضح المعالم الفارقة بين الأسطورة القديمة الدينية والأسطورة في عالم الأدب، والتي تتحد حيناً وتتجادل في أحيان كثيرة، فلولا الأدب لما عاشت الأسطورة ولا ما بقيت حية عبر كل هذه العصور، ولكن ورغم هذه العلاقة اللزومية التي تربط الأسطورة بالأدب إلا أننا نجد نوعاً من الأرباك في توظيفها؛ لأنها مستقرة وثابتة وغير متحولة وليس من السهل على الأدب أن يقوم بمحاكاتها بطريقة تنفذه من سيطرة الموروث، فلا يمكن تغيير الموروث بسهولة، وهنا يأتي الإبداع الذي قال عنه أرسطو. الإبداع في المحاكاة دون الوقوع في التقليد. . ولكن لماذا يلجأ المبدع دائماً إلى إثراء نصوصه بالأساطير؟

في البداية كانت الأسطورة للتعبير عن حاجيات الإنسان البدائي وتفسير الظواهر غير المبررة في فكره، ثم أصبح توظيفها من طرف المبدع حاجة ضرورية يتطلبها واقعه، فعندما عجز المبدع عن تبرير واقعه وإيجاد تفسيرات منطقية له وجد نفسه يعود إلى بدائيته ويبحث فيها عن لغة يستعين بها في وصف واقعه، فكان توظيف الأسطورة، ولكن هذا التوظيف لا يكون مجرد عملية إقحام ولا تكون قصراً وتعسفاً، بل يجب أن تتم في سياق النص الأدبي وبغفوية، لتجسد معادلاً موضوعياً تعبر عن التجربة الأدبية بلغة رمزية موحية، فالأديب يعتمد على المجاز ليعبر عن رؤيته للكون والعالم، ويستخدم لغة المجازية تتجانس مع خياله وترفع أعماله إلى دائرة الأعمال الفنية الأدبية.

كما أن المبدع يلجأ لتوظيف الأسطورة من أجل تحقيق أهداف خفية، كالاختباء وراء أسماء أسطورية ليصف واقعا تتجاوز العقل والواقع، ووصل حد الماورائية، بالإضافة إلى أنها طريقة تسمح بوصف الراهن بلغة تتجاوز الزمان والمكان وتعبر عن أزمة البشرية.

خاتمة

يلجأ المبدع إلى الأسطورة من أجل التعبير عن واقعه والهروب منه إلى عالم من صنع اللامعقول يتحدى به ما صنعه العقل، وكأن الحياة التي صنعها العقل البشري وضعته في حالة من اليأس حتى أصبح يستعين باللاعقل، لقد غير التطور البشرية، وغير معها القيم والمبادئ، فصنع لنفسه أسطورة الإنسان الذي لا يهزم، فهزم الإنسان نفسه، ودخل في عجز

نفسى وقيمي، صنع لنا نفسية متأزمة، وتمرّدة، لم تستطع مواجهة الواقع بما لديها، فقرّرت الهروب إلى الأساطير الخالدة، للبحث فيها عن المتنفس والمخرج.

إن تمرد الفنان على واقعه وعلى عصره أجبره على استعمال الأساطير كمادة حية لنصوصه، والتي حافظت على بقائه والتعبير عن ذاته، فالأسطورة اليوم هي رمز وقناع ووسيلة يستخدمها المبدع ليصف أسطورة الحياة اليومية بلغة مجازية تصنع فرادة النصوص الأدبية.

قائمة المراجع:

- ابن منظور، (1990)، لسان العرب، ط 01، بيروت: دار صادر، المجلد 04.
- الجوهري إسماعيل بن حماد، (1990)، تاج اللغة وصحاح العربية، تحقيق احمد عبد الغفور عطار، ط04، بيروت: دار العلم للملايين، المجلد 01.
- باجو دانييل - هنري ، (1997)، الأدب العام المقارن، ترجمة غسان السيد، دمشق: منشورات اتحاد الكتاب العرب.
- بارث رولان ، (2012)، أسطوريات(أسطرة الحياة اليومية)، ترجمة قاسم المقداد، د ط، دمشق: دار نينوى للدراسات والنشر.
- السواح فراس ، (2000)، فلسفة الأسطورة، ترجمة منذر بدر حلوم، ط 01، اللاذقية، سوريا: دار الحوار للنشر والتوزيع.
- السواح فراس ، (2000)، الأسطورة والمعنى(الأسطورة في الميثولوجيا والديانات المشرقية)، ط2، دمشق: منشورات دار علاء الدين.
- السواح فراس ،(1996)، مغامرة العقل الأولى(دراسة في الأسطورة سوريا ، أرض بلاد الرافدين)، ط 11، دمشق: دار علاء الدين.
- عزام محمد ، (أيار 2002)، الأسطورة في الشعر السوري المعاصر، مجلة الموقف الأدبي ، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، سوريا، العدد (372)، ص63.
- لعور هجيرة ، (2009)، الغفران في ضوء النقد الأسطوري، ط 01، القاهرة: الهيئة العامة لقصور الثقافة.
- وصفي هدى ، (أكتوبر - نوفمبر - ديسمبر 1983)، المشروع الفكري وأسطورة أوديب - قراءة في فكر طه حسين (1889 . 1973)، مجلة فصول، مصر، المجلد 04 ، العدد (01)، ص173.
- رومية وهب أحمد ، (1996)، شعرنا القديم والنقد الجديد، د ط، الكويت: إصدارات عالم المعرفة.